من اليوميات اللندنية ١٩٩٤

سيِّدة النبات، أمُّ القمح*

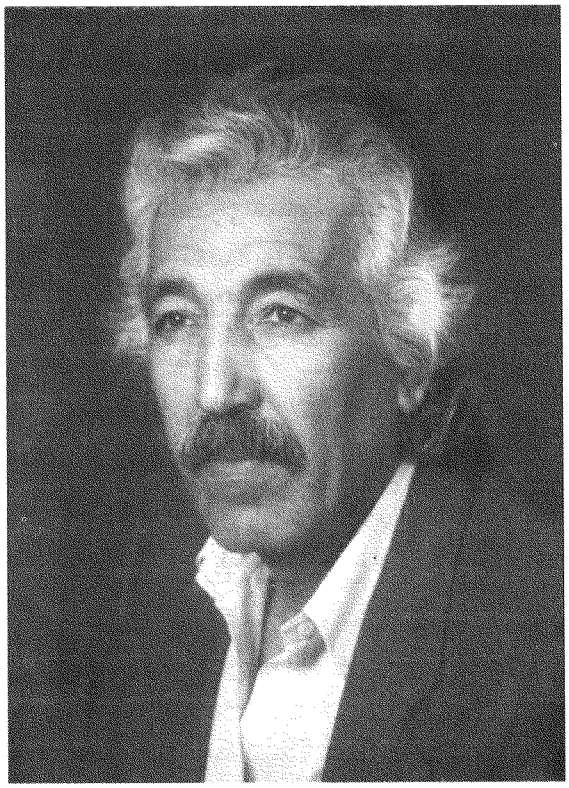

محمد القيسي

١

أضع الهاتف، وأكتب هذه الجملة الطويلة:

[ينفلق النهار من صوتكِ، وكل شيء يصير يسطع حولي، من النافذة يدخل الشعاعُ ويباركني، أنا الغنيّ بكِ، الفقيرَ إليك، كأنك تقدّمين لي نفسي، تضيئين المجهول فيَّ، وبالأصابع تمسحين غبار الروح. ما أشدّ حاجتي إلى صفائك! ما أشدّ حاجتي، يا حمامةَ قلبي وأختي وابتهالَ الجسد.

ينفلق النهار من صوتك، ويصير نهاري.

سأجتهد أن أصوغ ندائي الخاصَّ بك وأقولَك. سأجتهد أن أغنّي، وأن أتعلّم من أوصاب روحك لأكون جديراً بقلبي. وسأجتهد أن تكوني إلى جانب حمدة فيَّ، رسولةً في نشيد من الجمال. نتعلّم في الحب، ربما، أكثر مما نتعلّم في الكتب، إذ يوفّر لنا الحبُّ هذه الطاقةَ، طاقةَ الكشف عن أعماقنا وطبقاتنا النفسيةِ الغائرةِ في الزمن، لكأنه أبٌ حاذقُ الحنان، يُسبغ علينا من نعمائه، نعماءِ الكشف الأشبه بالخلق. هكذا يصير المحبُّ خلاّقاً، خلاّقَ حالاتٍ وحياةٍ خضراء. مَنِ الذي قال: «النظرية جافة، والحياة شجرة خضراء»؟ نسيت، ولا أريد غيرك في الذاكرة، والآن].

أضع الهاتف، وأكتب هذه الجملة الطويلة:

توقّفتُ عند هذا الحدّ من الكتابة، وقلتُ أكملتُ لصفية الكائنات رسالتي. تركتها على المكتب، وصعدتُ إلى الغرف العليا. أغلقتُ عليّ غرفةَ الأولاد وتمدّدتُ على سرير. لستُ تماماً وحدي، كان الشباك يصلني بمقطع كبير من السماء، وكانت السماء زرقاء، يشوبها غيمٌ خفيف. وكنت وحدي، ليس تماماً وحدي. عقدتُ يديّ تحت رأسي وفكّرتُ:

ـ أنا على الأرض. وأنتِ، اللحظةَ، لا بدّ أن تكوني في الفضاء.

وأسفتُ لأنّ طائرتك لن تمرّ خلال المقطع السمائيّ المعلّق بشباكي. لكنني أحضرتُكِ دون الطائرة، وأدخلتُكِ الغرفةَ والسرير. لعلّي غفوتُ قليلاً، وأفقتُ.

[أريد أن أصمت الآن. إنهم ينزعونك مني. أخبارُ ما بعد الظهيرة تنزعني منك. إنها أخبار المجزرة في الخليل، كانوا يصلّون في الحرم الإبراهيميّ. ذُهلتُ لحجم البشاعة، بشاعةِ الجريمة، كأني لستُ فلسطينياً، كأني ما عرفتُ مثيلاتٍ لها من قبلُ، كأني لا أعرف بمشاريع نَزْعِنا من الحياة.

من الخارج، عاد فراس. قال إنّ الرايات السوداء

---

* ـ فقرات مقتطفة من رواية **حب في موت متقطّع**، وهو كتاب نثريّ مُشْرع على الأجناس قيدَ الإعداد.

تملأ المخيم. مخيم شلّنر، إذن. فقد بدأ الفلسطينيون حدادَهم الرمزيَّ. منذ الفجر كانت المذبحة. حين كنا نتحدّث في الهاتف، وأقول «أحبك»، كان دمُ أهلي يسيل هناك، وأنا لا أعرف. فأية تراجيديا هذه!

أجل، نَعُدُّ قبورَنا ونحبُّ.

الآن، أنت تملأين المشهد، وعيناك دامعتان، تملأين المشهد عليَّ. ولا أحتاج إلى خرقة سوداء، لأقول حدادي، بعد أن كستْ تيجانُ الحزنِ رؤوسَ المخيّم والناس. منذورون نحن لذلك، منحوتون مثل درج المايا الطويل العالي، وقد نَقَشَتِ الفاجعةُ في نفوسنا آثارَها العميقة، لنستحيل أنصاباً متحرّكة، أو أيقوناتٍ من تواريخ وكلماتٍ تتشابك فيها خيوطُ الحياة والموت. ونحن نفرد بيوتنا الداخلية في ومضاتِ وجوهِ أطفالنا القادمين، حزَانى جداً، كأنّا بلا نهار أو غدٍ، والحدادُ يكتمل الآن.

أية نقوش تتوالد وتتجدّد في الزمن، لتتواصل صورةُ الذبح فينا، صورةُ السلالة في الوجه والحجر؟ مُغلَّفون بالتاريخ، والتاريخُ ملاءةٌ سوداء. فأين تطريزُ الضوء، وأين غضبةُ العرب!؟

حزين أنا، وأنت تملأين المشهد. صدرُك بعيدٌ لألقي عليه برأسي وأبكي. إني لأذْهَبُ فيَّ وأبكي أمام هذا القهر. فالذي يحدث ليس أقلّ من قَدرٍ إغريقيٍّ. لقد تجمّع الدمعُ في عينيّ وتجمّد، وران في البيت سكونٌ عميق].

□

حين وصلني صوتُ المؤذن، داعياً لصلاة الفجرِ كنت أُطْبق رواية **فندق البحيرة** على الصفحة١١١، وأضعها جانباً، معتزماً إطفاءَ الضوء، لأضمّك إليّ، ولتبقى عيناي مفتوحتين في العتمة. أردتُكِ هذه اللحظة جداً، بيد أنّك كنتِ هناك، فأدرتُ صراعي النفسيَّ مع العتمة، بما يليق بعاشقٍ ذي مخيلةٍ غيرِ قادرةٍ على محو النأي، ولا عزاء له.

انتبهتُ نهاراً إلى أني كنتُ وضعتُ خطوطاً تحت بعض الجمل في هذه الرواية التي لم تعجبني كثيراً، رغم التنويه بأنها فائزة بجائزة بوكر لعام ١٩٨٤ واسم كاتبتها «أنيتا بروكنر». وهذه الجمل هي:

- «ينبغي ألا أكون هنا، أنا في مكان غير مناسب!»
- «أفكر فيك طوال الوقت، وأحاول أن أُخمّن أين كنت..».
- «لا أستطيع التفكير أو التصرف أو الكلام أو الكتابة أو حتى أن أحلم بأي شكل من أشكال الطاقة في غياب الحب».

ومع ذلك أكملتُ الرواية، وأنا انتظرك. انتظرتُكِ في الظهيرة، وانتظرتُكِ مثلَ طفل ينتظر عسلك السائل، وقلتُ يقترب الوقتُ من الثالثة، لعلك الآن في المطار، في طريق عودتك إلى البيت، وقد تعذّر الهاتفُ، ربما.

غَزَتْني كآبةٌ شفّافة، دَفَعَتْني إلى الإحساس بحميمية العلاقة مع الأشياء من حولي. وكنتُ قد خرجت إلى ممرّ داري، ورأيتُ إلى ما يفعل الخريفُ بالشجر، وكيف تشكّل أوراقُ الكرمة المتساقطة منذ أسابيع طبقةً سميكةً تغطّي وتحجب تفاصيلَ وجه الأرض. قلت لا بدّ لها أن تتنفّس. أخذتُ المشط الأرضيّ وبدأت أجمع الأوراق الجافّة إلى كومة في منتصف الجنينة، وأخلع ما تناثر من أعشاب هنا وهناك، بين أشتال الورد والخضرة. كما قمت بتقليم بعض الأغصان، وسوّيتُ شيئاً من الرونق في المكان. هل كنت أعالج وحدتي بأشغالي اليدويّة؟ ثم إني جلستُ على الحافة الإسمنتية متوحِّداً مثلَ صقرٍ جريح، وكنت أرخي سمعي للهاتف القريب وأنتظرك.

تأملتُ قطعة الأرض الصغيرة، حدّقتُ في التراب والفروع القليلة التي قصصتُ، ثم نهضتُ لأجمعَ بعض الحجارة لأعزقها بعيداً، وخلتُ أنّ الأرض تتألم، وكأنّ الحجارة التي عزقتُ جانباً والفروعَ المقصوفة تومئ لي، وتحكي معي. تحرّك شيءٌ ما فيّ، ولا أعرف لماذا خطر لي أن أحدِّثكِ بهذا. خففتُ إلى الطاولة، ورحتُ أكتب مخاطباً وجهك الشاخص قبالتي:

ليست خرساءَ هذه الحجارةُ التي تئنُ،
أو الأغصانُ،
وقد عالجتُها بالمقصّ قبيل قليلٍ،
ليستْ بلا روحٍ،
وليستْ جماداً،
الأغصانُ إخوةٌ منسيّونْ
وأمنّا واحدة
أمّا هذه الشخرةُ فأُختي
ومثلك، مثلي،
تتوجّعُ وتغنّي وتُحبُّ.

هل ذهبتُ بعيداً في مرضي؟ لقد توحّدتِ في الأشياء، ولستُ بقادر أن أفصلك عمّا وقعتْ عليه نظراتك هنا. وبينا أنا في هذه الحالة، رنَّ الهاتفُ، قلتُ لا بدّ أنت، وكان صوتك، بلّلني بالطمأنينة والرضا، وقال لي إنّكِ معي.

□

فكّرتُ بعد حديث الهاتف هذا المساء، أنّ ما بي يَقْرب أن يكون نوعاً من ديانة شخصية، لأنّ ما يتخلّلني من أمواج الحلول في مناخ الحالة العشقيّة المجلّلة بصلوات غامضة ليس عادياً، سواء أثناء الوصال مع صوتك، أو فعل استحضارك بعد الإقفال. إذ إني أرى الصوتَ يبقى، والجسد يلوح، فأداعبه وألامسه، ونسترسل في الهناءة.

مغلَّفونُ بالتاريخ نحنُ، والتاريخ ملاءةٌ سوداء، فأين تطريزُ الضوء، وأين غضبةُ العرب؟

أذهب مغموراً برياشك وغيوم سماواتك النائية. فهل يكون الحبُّ دون أن ندري عبادةً تستغرق الروح، ويتشرّبها القلبُ والجسدُ، نسمةً نسمةً، ودفقةً دفقةً!

قبل سنوات قليلة، قرأتُ كتاباً صغير الحجم، لكنه بعيد الأثر لطاغور، وهو عندي أحدُ أسلافي وآبائي الكبار. هذا الكتاب هو **ديانة الشاعر**. وهو كتاب دافئ، وشفّاف، ومختلف عن مجمل أعماله، شعراً ونثراً، ويشتمل على حدوس الشاعر، وتأملاته، ونظراته الدقيقة في الحياة والإنسان والأشياء، وعلى روح التناغم مع عناصر الكون. أنتبه الآن، أن جوهر هذه الديانة هو الوحدة في تجلّياتها اللانهائية التنوّع، وتناغُم الكثرة في الحياة، في الإنسان، إذ «الوحدةُ محبةٌ»، والحبُّ حياةٌ، والحياةُ لا معنى لها بعيداً عن شرطها الإنسانيّ والمعرفيّ.

الليلة، أمسكُ بديانتي، وأعبر موقف العشق، ومحرابي وجهُكِ يا واحدتي الكثيرةَ العددِ.

□

يا له من صباح! الصحيح أنني استيقظت في الظهيرة، وكنتُ نمتُ بعد تسابيح صلاة العيد التي بدأتْ في الجامع القريب من بيتي. يقال «عيد»، فكيف يكون عيداً من دونك؟ قبل أيام كانت أعيادُنا معاً في بيروت، أما اليوم، فليس إلا مجرد يوم عاديّ، يوم من دونك، يوم آخر لأتذكّرك وأُحْضرك إليّ، يوم أنا فيه وحديٌ... ومعكِ في استغراقٍ حميم صامت.

حلقتُ ذقني، وتركتُ شاربيّ يتهدّلان في انتظار مقصّك. أخذتُ مقصَّ الشجر عن ثلاّجة المكتبة، وقصصتُ خمسَ سعفات من النخلة الواقعة تحت شبّاك بيسان، أنت تعرفينها، قصيرةً وناصعة الخضرة. ملأتُ إناءً بلاستيكياً بالماء، وتحت إبطي حملتُ المصحفة وذهبتُ إلى زيارة قبر أمي. قمتُ بهذه الطقوس كلّها في صمت متأمّل غريب.

كنتُ متأخراً في الذهاب إلى إقامة أمي الأبديّة، فحزنتُ على انتظارها وحدها دون زوّار. على القبر فتحتُ الكتاب من دون تحديد؛ هكذا فعلتُ في العيد السابق. فكانت سورةُ «الحشر». رغبتُ أن أبكي فلم أستطع، وتساءلتُ بوجع حقيقي، أقرب إلى الندم:

لماذا لم آخذْكِ أثناء إقامتك عندنا إلى قبرها، لنلتقي نحن الثلاثةَ معاً؟ ربما لأنكما أكثر امرأتين أحببتهما وسأحبهما في حياتي. ها هي ترقد هنا، وأنت بعيدة في مكان ما، وأنا بينكما في الفراغ الأكيد.

عدتُ، وقد سكبتُ الماء على الجزء الترابيِّ من قبرها، وغرزتُ السعفات الخمس، وقد ثبّتُّها ببعض الحجارة. قرأتُ سورةً أخرى قصيرة، وعدتُ من دون الإناء.

لم تشكّل لي مواصلةُ القراءة في كتاب **العلاقات الخطرة**، الذي أوغلتُ فيه إلى أكثر من النصف، عزاءً، على رغم أني أضمُّك فيه، كما يضمُّ الكتابُ كلماتِ إهدائك القليلة، يا واحدتي الحاضرة، التي تظلّين حاضرة.

□

قمر يكاد يكون كاملَ التدوير في السماء، لولا خدوشٌ قليلةٌ في أطرافه السفليّة. الساعة الآن الثانية والنصف صباحاً. قبل أيام قليلة، كنا نراه في بيروت من البحر هلالاً، وتُنبّهينني إليه بفرح طفولي.

صعدتُ إلى سطح البيت. كل شيء يغرق في الصمت، وأنا لا أستطيع النوم. هل أنتظر هاتفاً منك في الثالثة؟ لا أعرف، أحاول جاهداً أن أتخيّلك قليلاً لأغفو، ولا يصلني التعبُ فأنام، أجلس الآن على الشرفة وأكتب.

طيلة نهار اليوم، وحتى الثالثة والنصف مساء، كنتُ وحدي في البيت. لقد ذهب الجميع إلى المدينة، وحين أقفلتُ البوّابة وراءهم، أحسستُ أنني أعود إليك، وأحتضنك. كنت أستعجل ذهابهم لأكون وحدي، معكِ. أليس ذلك غريباً؟ وإذ صعدتُ إلى الأعلى، فوجئتُ بوحشة هائلة، وضيقٍ في النفس. ليس غيابُك قليلاً. إنّ الوحدة لقاتلة. وشخصياتُ **العلاقات الخطرة**، الغريبةُ في نزواتها، لم تنجح في نزعي عنك. أحدّق في الفراغ طويلاً، كأني أنطق: أين أنت هذا الأحدَ، أتكونين وحدَكِ مثلي؟

أرتاح من القراءة وأهبط إلى الحديقة، لا أستطيع أن أفعل شيئاً لهذا الذبول. الشمس حارّة، وثمّة نبتاتٌ أحضرتُها منذ الجمعة ووضعتُها في الماء، ولم أزرعْها حتى الآن. ملأتُ صينية التوتياء، والصحنَ الأبيضَ بالماء، وضعتهُما تحت الزيتونة. قلت ستعطش القططُ الضالّةُ والعصافيرُ في هذا الحرّ، وسوف تُقبل لتشرب. تملأين عليّ كلَّ شيء. وجهك، شعرك، عيناك، وجسدك كلّه، جسدُك الذي هو أغنيتي، هو صراخي وحزنُ هذه اللحظة، حزنُ رجلٍ وحيدٍ، يدور في بيتٍ واسع. لو كان لي غرفة صغيرة إلى جوارك، حيث تقيمين هناك، ما كانت بمثل هذا الضيق. هل ستكون لي غرفة، غرفة صغيرة فحسب في مدينتكِ، حيث نحتفل معاً خارج كل الأسفار، ونقيم أعيادنا، باغتيال المسافة؟

الآن الثالثة والنصف، هواء بارد، سأدخل وأحاول النوم.

لم أنم أمس إلى ما بعد آذان الفجر، كنت أدور معك في جغرافيا واسعة، ما بين المشرق والمغرب.

□

يومٌ عاديٌّ آخر من العزلة في البيت، هل يكون صالحاً لمواصلة الشغل في **كتاب الابن** إضافةً إلى انتظارك؟ أشكّ في ذلك. أنهيتُ أمسِ بإصرارٍ مرهقٍ قراءة **العلاقات الخطرة**. وبينما كان القلبُ في الأيام الماضية منشغلاً بغيابك، كنتُ أشتغل أيضاً على نصَّيْ «مقام فاس» و«في الوداع» قراءةً وتغييراً. لكأني أُعالج البعدَ بحيلة الكتابة، وأضمن بذلك حضورَك الطيفيَّ العميق. أعتقد أني وصلتُ إلى الصياغة الأخيرة لهما، لكنْ متى أستمكن من تبييضهما وإعدادهما للنشر!؟

يَحْضرني الآن قولٌ لنيتشه هو: «نحن نبدع الفنَّ كي لا نموت بسبب الواقع». أما يمنى العيد في كتابها النقديّ **الكتابة: تحوُّلٌ في التحوّل** ـ وقد بدأتُ قراءتَه اليومَ ـ فتقول: نكتب لنبدعَ جسداً إشارياً تتجدَّد فيه الحياةُ فتدوم؛ وهو ما يعادل معنى الدعوة إلى سلام منشود على هذه الأرض، كوكبنا الجميلِ.

لا بدّ أن أزرع هذا النهارَ نبتاتِ الورد في الحديقة. فليكن ذلك تمريناً لي. عدتُ إلى سراويل جينز قديمةٍ، متروكةٍ منذ سنوات بسبب ضيقها؛ حاولتُها، ودخلتُ فيها بسهولة، ستسمّين ذلك رشاقةً، كعادتك؛ لا، أنا أزداد نحولاً، وبالتاكيد أنا مريض بالحب، مريضٌ بك.

أمسِ واليومَ، خطرتْ لي أفكارٌ غريبة في الموت. قلتُ لبيسان، ابنتي، مازحاً، لكنْ بهدوءٍ مشوبٍ بالحزن:

* ماذا تفعلون بالمكتبة وأشيائي لو متُّ؟

ـ بعيد الشر، قالت.

* مجرد سؤال خطر لي الآن.

ـ ليش ما تنام يابا؟

هذا اليوم أيضاً هاتفتُ د. إحسان عباس، أردتُ أن أُحيّيه وأطمئنَّ على صحته. صوتُهُ واهنٌ في الهاتف وحزين، واختنقتُ بالكلمات. لم أشأ أن أُثقل عليه أكثر، قال: لا، لقد سعدتُ بصوتك، واطمأننتُ عليك. تصوّري عظمةَ هذا الرجل وتواضعه؟ إنه آخر آبائنا الكبار.

لئن خرجتُ من كآبتي، سأحمل له ضمَّة وردٍ وأزوره. لقد بدأ كاتباً من السودان، وها أنا أكلّل شعريّتي أخيراً بماء رموزه الجارية.

دعيني أرتاح يا واحدتي بصوتك.

مُرُّ الثمار بعادُها
وَالليلُ أَقفَاصُ

ثوبها الأحمر يتوهّج،
كأنّ دمي كامن في خيوطه،
وخطت كغزالةٍ نحوي،
فأينع عشبٌ ذابلٌ فيّ

فَلِمَنْ سَيخضَلُّ الندى
وَيقلُّني الباصُ؟

٢

أفكّر في الكتابة، وأتساءل ماذا أكتب في لندن؟ وصلتُ منذ خمسة أيام، ويمكن القول إنني لست وحيداً منذ وطئتْ قدماي أرضَ المطار؛ فالساعاتُ تضجّ بهوى مكبوت، جمّل لي مداراتِ الأرض كلَّها، وأعطى هذه النكهةَ للأمكنة والأشياء.

أقلّتني العربةُ إلى الفندق، صحبةَ اليد الصديقة، التي لم تترك لي فراغاً، حتى حين أوي آخرَ الليل إلى سريري. مليء هو الوقتُ، وغنّي بالتفاصيل الصغيرة. وهل الحياة غير هذه التفاصيل، بما تُشكّلنا عليه، وتعطي لوجودنا المعنى؟ ومع ذلك لن تخرق الكتابة ستائرها الشفّافة، لتقول الضوءَ واللمسةَ والأغنية.

خفيفاً سأمرّ على الندى، وبأطراف الأصابع ألمس أوراقَ هذا العشب الحريريّ، وأمسكُ ما أمكنني عن موسيقى القلب. فما بغريب عن القصيدة صار عشقي، إذ أجيء هذه الأصقاعَ عاشقاً مجرَّحاً بالفرح ومغسولاً به تماماً.

دافئاً كان المكان، دافئةً كانت الغرفة. سريرٌ بسعة قلبين، وماء كاف لبلِّ هذا العطش الغامض، عطشٍ في كل شيء. كأني لا أعرف هذه اليد، لا أعرف لآلئَ هاتين العينين ببرق خيوطهما، الذي من خضرة يتهدّل فيّ، يبعثني فتى يدور في جنبات جنّاته المرخاة الأهداب والعنّاب، ويتيماً كأني سأظل تحت هذه القباب إلى أبد الآبدين، فلا أرعوي عن غيّ، ولا طيوري تصل أعشاشها.

□

يكتمل اليومَ أسبوعي الأولُ في لندن، وها أنا منذ نصف ساعة في المقهى، أحتسي قهوتي المرَّةَ، وأنتظر اليدَ الصديقة. أنهيتُ قبل قليل قراءةَ كتابٍ عن حياة نازك الملائكة، فما راقني هذا الجمودُ أو انغلاق القلب.

بي قدر من حزن شفيف، وحرقةٌ بفعل غيابها المؤقت. قالت: ستكون التاسعةَ هنا. تركتُ بين أسنان الآلة جملةً لها

تقول: «الريحُ عنواني وأنتِ الريح». كنّا اتفقنا أن نجلس إلى بعضنا أمام الأوراق، ثم ننتشر في أرض اللّه، محاولَيْن تضميدَ جراح المكان. هل يبدأ مرض الوحدة؟ إني لأكتب وعيناي ترصدان جانبَي الطريق. شارعُها صغيرٌ مثل قطعة حلوى، وهادئ... والمشاة هنا قليلون. لا بد وأن يليق بي هذا الحزنُ المنسكبُ على رصيف المقهى المبلّط. ثلاث حمامات ينقرن الأرض أمامي. في مدخل الشارع عرباتٌ واقفةٌ ودرّاجات. تَعْبر سيدةٌ من سكّان الجوار، بملامح جمال غابر وكبرياء لا تُسلّم للزمن.

أيها الغريب الذي تنتظر، كفكفْ أساك قليلاً. ولكنْ، أين تذهب في الفراغ العميم؟ الظهيرة تدنو. كثير من الصلوات، كثير من الصمت، تنفرط حباته قبل الوصول. إحدى الحمامات الثلاث تقترب من مقعدي الرصيفي، تمشي باعتدادٍ ملكيّ، بالغةَ الطمأنينة، تهزّ رأسها في حركةٍ وليدٍ يستقبل النورَ والعالمَ الأرضيّ، أحسّ ذلك. وكما لو أنها في مركب بحريّ لا ينثني عنقها، تمشي، وتنقر أحياناً الهواء.

ما هي الوحدة؟

أهي الانغمار الحميميُّ، الاشتباكُ اللحظيُّ الدائم مع الناس الذين نحب، الذين هم معنا وغيرُ حاضرين جسداً؟ أم هي الاحتكاك بالضجيج النافر والزحام، وأنت تحمل جثّتك وتمشي، أو تنهدّ على مقعد مقهى وفي يدك كتابٌ وأوراق كثيرة محاطاً بوجوه الجلاّس يثرثرون ويضحكون، أو صامتين في وحدة تَجلّد البدن والروح، وأنت وحدك، وأنت تراقب الحركة والضجيج، وخفقَ الماء في الحوض الذي أمامك، في المكان الذي لا تعرف بَعْدُ له اسماً!؟

وحدك أنت، ووحدك في ما يشبه غيمةً بلا سماء، غيمةً بلا أرض لتهطل، أو أفقٍ يحميك اللحظةَ من غول الوحدة الهاجم عليك بلا هوادة، غولٍ بأنيابٍ لامرئيةٍ، وهراواتٍ تقع على القَلب، فيعظم الصدى رهبةً، وتضجّ بالأسئلة.

أية مراكب قادتك،

أية مرافئ في انتظارك!؟

□

بين آن وآن يتفتّح صدرُك، تشرعه على جهات الاحتمالات، وحيداً في موكب حبك تنطلق إلى الثانية، وهذه ظهيرتُك الثامنة هنا.

يا دليلي ترفّقْ، وأوْعِزْ لنار الصدر أن لا تشبّ عاليةً في «اكسفورد ستريت»، لترى الطريقَ إليها، وتأخذك يدَها إلى بيت الحياة القريب.

لم أتناول قهوتي المرّة كالعادة، منذ قليل؛ لم أتناولها مطلع الظهيرة الذي فات وذوى. لكنّ فمي مرّ، وأنا أكتب على مقعد خشبيّ طويل، على رصيف مقهى أو بار، شربنا فيه قبل يومين أو ثلاثة، كوبين من ضوء. والآن وحدي، لا أراني في فضائل هذا الوقت ـ على رقّة نسائمه ـ صالحاً لنشيد الفرح. شاب وفتاة يأكلان طعامهما على مقعد مجاور ويذهبان، وأبقى. فتاتان في سمرة أفريقية غامقة تسجّلان أحاديثَ إذاعيةٍ مع بعض المارّة؛ أنظر إليهما، ولا أنظر إلى شيء. حمائم حول المقعد تتقافز، وتلتقط طعامها. ولا أذهب إلى التدخين.

أحدّق في الشارع والحمام. ثمة أقدام تعبر عني. حلقي جافٌّ، فكيف أغنّي؟ للحمام سيقان حمراء؛ أنتبه إلى اللون، فما الذي يخضّبني الآن؟ تذهب الفتاتان بألتهما المسجّلة. الحمام حولي يظلّ، والمقاعد الرصيفية تفرغ إلا مني.

وهيَ لا تبعدُ عنّي غيرُ أمتارٍ،
ولكنَّ المسافهْ
ها هنا تَبقَى مسافهْ
ربما تبزغُ في ما بعدُ،
أو بعدَ قليلْ
ربما أهوي على المقعدِ، أو
أَصرخُ: يا هذا الزحامْ
أيها الفاتكُ بي أنتَ،
ويَا صَمتي المدوّي
مرحباً ثانيةً بعدَ المسرّاتِ العليلهْ
حيثُ هذا الوقتُ مشمولاً بنا
وَمتروكاً كَروحي.

يبدو صحيحاً لي ما يقوله «رولان بارت» من أنّ المراهقة هي المرحلة المثلى والفريدة للذاكرة، وأنّ الإنسان يمكن أن يؤرِّخ سنوات طفولته وشبابه، بمعالمها وسماتها. ألهذا ينغلق الزمن الذي يلي، فأرى كما يرى بارت أيضاً أنّ حياتي مثلُ حاضرٍ شاسعٍ من الصعب تجزئتُهُ، ومن الصعب وضعُهُ في منظار معين!؟

عشتُ طفولةً ومراهقةً قريبة جداً من طفولة بارت ومراهقته. ربما لهذا أحببته، لا من كتابه المبكر **الكتابة في الصفر** أو **لذة النص** فحسب، وإنما أيضاً من نصوص قصيرة وحوارات ومواقف في الحياة والأدب. بل ربما أحببتهُ لأنه قال إنّ المال كان أهمّ في تكوينه من الجنس، مُبيّناً ببساطة أنه «عاش طفولةً ومراهقةً جدّ فقيرتين، وقد حدث لنا ألا نجد ما نأكل.. وكان المشهد اليومي هو رؤية أمي وهي تعمل من دون توقّف..». لقد امتلك بارت، بعد مراهقته وشهرته، المالَ، لكنه كان مبذِّراً كبيراً كما يقول؛ وألاحظ أنني لم أكن مبذّراً يوماً، ربما لأنني لم أمتلك الكثيرَ لأغدو مبذِّراً، كما لم أشغف به جمعاً. كنت أجترح وقتي وحياتي وأسفاري بالقليل منه، القليل الكافي لأنْ أرى وأتعلّم.

كأنّ الكتابة فعلُ انتظارٍ في فراغ المقعد، فعلُ انتظار مَنْ نحبّ. لكأنّها خيطٌ سميك نسحبه، بعد أن نلقيه في النهر، لنرى ما يكون عليه سمكُنا البعيد. لكأنّها السديم، والفراغ كلّه. فبأيّ شيء نملأ أباريقنا لنمحو هذا الفراغَ الثقيل، ونلغي الهشاشةَ، إذ نعطي للغياب الفائق الحضور شكلَهُ الأسمى، وهي ـ أعني الكتابة ـ تبعث فينا المبكِّرَ من كلّ ربيع؟.

الصباح يسيل على كل شيء.

الصباح أغنية الأبنية، وأنا أستيقظ في الماء، أهيّئ قلبي لهذا الخميس. ستحضر أغنيتي، ونطرّز ثوباً يليق بهذا النهار الإلهيّ، النهار المرسوم منذ نبيذ الأمس، وطفلاً أخفّ إليّ، راشقاً وجهي بالصابون، أمرِّر حدّ الموسى عليه، وأزيل النابتَ من ذقني، أريد أن أزيّن الغرفة لغزالي القادم، وأنحي صحفَ الأيام الماضية إلى ركن أبعد، وأخلّي الكنبة تحت الشبّاك، أزيح غطاءَ سريري القطنيّ، فلا يجرح جسد أميري.

بعد قليلٍ سيطلُّ هلالُ الأبنوسِ، يضوعُ الصندلُ والمسكُ، وأُمسكُ عن موتي.

من أين ترى يتهاطلُ دُرّاق الحب، ويقطُرُ عسلاً بين الشفتينْ!؟

كيفَ له أن يأسَر فينا النأمةَ، ونكونَ له ملْكَ الرجفة، ملْك الرعشَات يُحرِّكُنا بأصابعه، يبعثُنا في جهةٍ لا نعرفُ أين!؟

لنموجَ سنابلَ ناضجةً في الأفلاكِ، وننهلَ عَطْشانينِ، وحيديْنِ مع الينبوعِ الدافقِ فينا.

إلهيَ عَفواً وقد فاضَ نورُ هواكَ،

إذا نحنُ ضِقْنا عن الحوْطِ وانتثرَ الياسمينُ، فهاجتْ مناديلُنا، وأساورُنا في الكلامْ.

□

مقهى «روج» مختلف عنه في أيامه الأخرى. فما جلوسي الآن إلا ترنيمةٌ لإطالة عمر الصمت، ونحيبُ مزاميرَ ملتمّةٍ في ورق الطاولة وكلامي.

ستطول الترنيمة، وتُبَحُّ المزاميرُ في رشفات القهوة المرّةِ وعبور السابلة، بينا تسترسل اليد الصديقة، في مشيها المسائيّ الطارئ، مشيها المزودج وقد أعلنته لي، وفاجأ انتظاري وحيرتي الفاردةَ جدائلها في الجهات ارتقاباً لخطوتها، على الدرج الصاعد إلى مكان احتراقي.

كانتْ درجتْ إليَّ وهلّتْ،

ثوبُها الأحمر الطويل المزيّن بالورد يتوهّج، كما لو أنّ دمي كامنٌ في خيوطه، وخَطَتْ كغزالة نحوي، فأينع عشبٌ ذابلٌ فيّ، ورقّص النسيمُ زهوراً نائمة على صدري، وكأني منذ عصور لم أرها.

هشَّ المقعد والطاولة، وبين يديّ أسترخى الكتابُ الذي أقرأ، وراح يُفْشي ارتباكي، هي التي تعرف ولَهي.

وقفتْ إلى الطاولة وقالت: لا تستطيع إليَّ مساءً هذا المساء. فلأمرٍ ما، كانت غير راغبة به، عرفتُ أن هذا المساء ليس لي. لن نذهب إذن إلى معزوفتنا اليومية، لن نرى إلى ركن بعيد، بلا نظّارة سوى نبيذنا.

سأكون وحدي معانقاً حضورَها الجارحَ، أو يجيء هاتفُ الليل. فإلى أيّ مدفن قريب سأصحب أنا المساءَ وأرمي عليه قرنفلي؟

قالت: ربما أتعلّل بأمر، وأخطف وقتاً قصيراً وآتي. كان جمالُها ساطعاً هذا المساء، وقلتُ: «جميلة أنتِ». كانت تستدير عائدةً، وخيوطُ القلب تشدّها. خِلْتُني بعد قليل سأجهش، وأهوي إلى جفرٍ، فلا أصل قاعاً، وليس لديّ من حطب أضيفه إلى ناري المتّقدة.

مطرٌ على العشّاقِ في الشارعْ

مطرٌ بلا رادعْ

مطرٌ يسحُّ على الزجاجِ،

على السياجْ

وأنا على الشبّاكِ، أسألُ ما العلاجْ!

□

لا يحدّ هذا الأحدَ مدى أو سياجٌ، أنسلُّ من قماشه خيوطي، والريحُ تدفعني إلى الهاتف. الهاتف في قاعة الطعام المشتركة، فليعصفْ بي طويلاً انتظارُ الرنين، ليقول ساعةَ قدومها. سأفرد الأوراقَ وألقي بالقلم الأخضر على سطح الطاولة، لأوهم الآخرين بانشغالي في الكتابة، أو أفتحُ الكتابَ وأقرأ قليلاً. تنزاح عيناي عن الورق والكتاب، عن الأواني، تنزاح عن المكان إلى الشبّاك الواسع المشرع على الأشجار والطريق والمشاة، وأرى منه مقطعاً عريضاً لمدينة لندن، يمتدّ حتى المدى. هل تفاجئني وتسبق هاتفها، فأراها في ساحة السكن الجامعي قادمةً، فأهرع ملسوعاً بفرحي، خمسَ طوابق حتى الباب لأفتحه لها وأقول: ادخلي جنّتي!؟

يقول الكتاب المفتوح أمامي على الصفحة ٩٢ إنّ «الأساطير القديمة كانت تركّز على مكانة الخصوبة الرئيسة في ذهن الإنسان، وإنّ هذه الخصوبة كانت تَجْمع بين عنفوان الطبيعة وقابليةِ المرأة ذاتها لتقليد الطبيعة، أو لمنافستها في مجال الخصوبة. هكذا كان التصوّر الحسيّ يفعل فعله في ذاكرة شعوب كثيرة، أي تشبيه المرأة بالطبيعة. ففي كلٍّ منهما يمكن تتبُّع مظاهر التنوّع والتغيّر في كل آن وحين. ولهذا اعتُبرت المرأةُ أمَّنا الأرض، واعتبرتِ الأرضُ الأمَ

مساماتي تتفتّح جوارَ
سرّةِ الكون، وتدفّقنا خصباً
ومجرّاتٍ وفواكه حتى استحلنا
في حديقة الورد ورداً غريباً يلفت الأنظار

الأولى، والمرأة الخصبةَ، التي لا مثيل لها».

كان الكتاب المفتوح هو **الجنس في القرآن** لإبراهيم محمود. أما فراس السوّاح فيشير في كتابه **لغز عشتار: الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة** أنّ المرأة بقيت، في كلّ الثقافات، الآلهةَ الخضراءَ، سيّدةَ الطبيعة النباتية. دعاها البابليون عشتار الخضراء، ودعاها المصريون إيزيس الخضراء وسيّدة الخبز، وسيّدة الجعة وأمّ القمح، ودعاها اليونان سيّدة السنابل.

فلماذا لا يرنّ الهاتف، أو تُقبِل ـ بوجهها الحنطيّ ـ سيدةُ السنابل!؟ غداً، سأكتب: «جاءت»، وأسجّل ما حدث، والآن،

كيف تُراني أذهبُ في هذا الضيقْ
حين أرى فمكِ الريحَ،
وظمأي حَسَراتِ الإبريقْ؟

□

يومٌ يَطْفر بالعنّاب، وغير عاديّ في لندن. بتُّ أرى الأيام هنا سلسلة طويلة من الدهشات المتتالية. الفرحُ حلقاتٌ تتكاثر بين أيادينا، وتتوالد كلّ لحظة، حتى لنراه أجمل من سابقه عمقاً وإيغالاً في الذات والحبيبة. فالأماكن لا تني تجمّلُ لباسها لنا، وأثاثُها الإلهيّ المنذور لأحاسيسنا الدفّاقة. لكأننا نكتشف ينابيعنا الذاتية المجهولة فينا، ينابيعَنا الأولى. وإننا لنطلُّ علينا مأخوذين بنا، ومأخوذين باكتشافاتنا الجديدة لتفتّحات عالمنا الجوانيّ المليء بالخضرة والغلال والحدائق النورانيّة.

قالت في الهاتف لي: تعال نجلس قليلاً، لا مواعيد لديّ، نأخذ الغداء معاً، ونجول الأمكنة.

بقيتُ في الغرفة طيلة الصباح. أهيّئُ روحي ليوم مختلف. شربتُ قهوةً في بار السكن الجامعيّ، وقرأتُ قليلاً. تأملتُ الفتية والفتيات، يُعرّفني بعضُهم إلى بعضهم هنا بـ«الشاعر»، الشاعرِ المشغولِ بالأوراق والصديقةِ الملوّنة. ماذا أفعل حتى تمرّ الساعتان؟ مشيتُ إلى المحطة تحتَ شمس حارّة، وجدّدتُ دفتر المواصلات، ثم أخذتُ، بعد جولةٍ قصيرة، قطارَ الأنفاق من «كامدن تاون» إلى «توتنهام كورت رود». توقّفتُ دونما سبب، وأنا أنظر في العابرين والأبنية. أصابتني الأشياءُ بحزن ما، حزنٍ لا مصدر له، أو هكذا تخيّلتُ. ثم إني رحتُ أصفّر لحناً، وأرتجل أغنية. انتبهتُ لما أفعل، ورأيتُني أُمسكُ بمطلع أغنية وأكملتها غناءً؛ كانت عن البيت الذي كان، والقطار الذي كان أيضاً؛ أيكون لأني قبل قليل كنت في قطار غريب، وأمشي إلى مَنْ أحبّ بلا قطاري البعيد!؟ سجّلتُ الأغنية على بطاقة دعوةٍ، كنتُ تسلمتها أمس، لحضور مهرجان ينظّمه التجمعُ القوميُّ العربي في أوروبا بمناسبة ذكرى ٢٣ يوليو، حيث أمين هويدي وأحمد عبد المعطي حجازي سيكونان من ضيوف المهرجان:

يمرُّ منْ أمام دارِنا القطارُ
يمرُّ التلاميذُ في الضُحى
ويَلعبُ الصِغارُ
تَمرُّ الليالي سَعيدهْ
وأبكي أنا
لأني هُنا
وَحيدٌ،
وَداري بَعيدهْ.

وصلت إلى «اكسفورد ستريت» والأغنية في جيبي. كانت تقف بالباب، ودخلنا البناية. أنهتْ آخر أوراقها وهواتفها، وغادرنا إلى بار قريب. وأوّلُ ما قطفنا القُبَلُ؛ كانت يمخرني عارمُ الشوق إليها، لا أعرف كيف لا أسكن أو أركن إلى هدوء وأنا إلى جانبها! أصابعها في يدي، وراحةُ يدها تنام بين كفّي، أو أتلمّس الوجهَ والعنقَ والشَعَر، كما لو كنت أترنّح في صلاة. بعد قليل اقترحت نوعَ نبيذنا، خففتُ إلى كوبين ذهبيّين من دم الغزال، واحتسينا معاً سرَّ هذا الجسد السائل اللامرئيّ، تحيطنا الموسيقى، وتظلّلنا الآلهةُ. كانت سجائري قد نفدت، ورأتْ أن لا نلتجئ إلى آلة السجائر التي تعطينا علباً غير كاملة. وقالت في الجوار دكانٌ لامرأة؛ خففت إليها وابتعتُ علبةً غير منقوصة، أشعلت اثنتين معاً، وقبّلتُ شفتيها بواحدة منهما. فرغتْ أكوابُنا الأولى، وأحضرتُ اثنين آخرين، وكانت قالت لي إنّها تدفع هي هذه المرة؛ لا بأسَ قلتُ، ما أجمل ذلك يا اللّه! وقالت بعد أن نفرغ من هذين، نمشي إلى مطعم عربيٍّ، فلا بدّ أن نتمتع هذا اليوم بطعام لائق، ونحتفل فرحيْن بلآلئنا الغامضة. اتصلتْ هاتفياً لتحجز لنا طاولةً في المكان، ولم يكن أحد ليجيب؛ قالت لا بأس، هناك مطعم آخر، هو عربيّ أيضاً. ذهبنا بلا هاتف، خفيفيْن من أثقال المسافة؛ ثمة عائلة بسيطة وجميلة تدير المكان، وهيأتْ لنا طاولة في أبعد الزوايا، وجاء طعامُنا العربيّ. امّحت الغربة مناخاً وناساً ولغةً، وأطعمتُها بيدي. هنا بساطة الأشياء في جمالها، وغناءُ الستينات يتسلسل فينا بلاداً ورؤى وتفاحاتٍ حزينة.

مَنْ جَرَحَ المغنّي ليسيلَ دمُه الآنَ منّا؟

مَنْ سَرقَ الغيمةَ وبدّدَها لتكونَ لنا الصحراءُ بلا قمحٍ وحاصدينَ وتراويدَ؟

يا اللّه ومَنْ نسجَ طويلاً فينا حَبائلَ الأكذوبةِ، حتى ارتمينا على العَتبةِ، نبكي الشبابيكَ والظلالَ والأماسي البعيدةَ؟ مَنْ يا حبيبتي، هيّا القطارات وزوّدَها بالوقودِ، لتمضي بنا أسرى ومنفيّينَ عن سماواتنا الأولى، وسَوّى لنا البسيطةَ أقلّ من بساطٍ ومَنْ أخذَ النومَ، وأعطانا هنا الليلَ الثاني؟

سيَطولُ في هذا الفرح نحيبي الصامتُ، ويطولُ بنا الوقتُ، حتى ليأخذَنَا منا ويأخذَ وقتَنا حيثُ سقفُكِ الموحشُ، وطريقي الطويلُ إلى منزلِ الطلبة!

غادرنا المطعم في خطوات تهوّم تحت ظلال اللّه. لم نلمس على الطريق تراباً أو حصى، أو ترهقنا حركة. يدي تحوط خصرها، نتهادى في الريح خفافاً، ريشتين، ربما فراشتين، حتى حطّ فينا الغناءُ وقوفاً بباب «ريجنت بارك» وشهقتُ افتتاناً أمام يناعة الوجود المفرود أمامي في مدّ الخضرة والأناقة والورد، لمعاناً زاخراً يلمع كلّ شيء بالبهجة، وبالبهجة ذاتها أمورُ، كما الناس والأشياء تمورُ، العشبُ والحمامُ، والأوزُ والبركةُ الساكنةُ في جلالٍ إلهيّ تحت ظلال الأشجار النوّاحة كما تُسمّى. كل شيء في زواج أمين. فمِنْ أين يطفح هذا الكرم السماويّ العميم!؟ تسبح المراكب الصغيرة على وجه الماء، كما البطّ، وهذه البجعاتُ الناعسة تطرّز نسيجَ الهدأة في هيئة ملوكيّة لا يعكّرها شيء. يعجز القول، الوصفُ، وتعجز أدواتي والإنشاءُ. سحبتُ مقعدين بيدي، واختارت هي إحدى الشجرات النائحة المطلّة على البركة، الهاطلةِ المرخاةِ أغصانُها نحو الأرض مثل مظلّة. دخلنا في الشجرة، صرنا تحتها، ونَصَبْنا المقعدين حتى تلامسا، وارتخى الجسدان عليهما، ارتخينا للنسيمات المتخلّلة الأغصان. عنقُها على كتفي، وأصابعُنا تتبادل الرضاب واللمس، تمرّ على جنّاتنا وتغنّي الحواس، بينا الصمتُ يعقد مهرجانه فينا. انتفضتْ أعراقي، وتحت أصابعي ارتجفتْ قارّتها الشاسعةُ، ونحن نرشف الحلاوة من كل شيء، ويتملّكنا الذهول. أمامنا امتدادُ الماء والمراكب، وطيران اثنان يتناقران على الغمر، يغوصان أحياناً ويطاردان بعضهما البعض؛ إنهما يتعاركان قلت، وكانا يتغازلان، يتبع الذكرُ الأنثى، وتفرّ هي أمامه في إغراء واضح، ينقرها حيناً، فتتقدّمه، ويغيبان عن عيوننا.

زوجان عجوزان يشربان الكولا من زجاجة واحدة. امرأة شابة على يميننا، فوق مقعدها، وحيدة، وأشياؤها حولها مبعثرة في ملل، تنظر أحياناً إلينا. فهل تشاهد عرامة الحياة

أهو «الفردوسي»
الذي سألوه: أيُّ المدن
أحبَّ إليك؟ فأجاب: تلك التي
يعيش فيها حبيبي؟ أم تراه أنا؟

التي تمخرنا على مقعدينا تحت مظلّة الأغصان، وموسيقى الخضرة؟

ننزع ثانيةً للتجوال، وننقد صاحبَ المقاعد أجرةَ المقعدين، مُمتنّين لهذا الجمال.

قالت: سأريك حديقة الورد.

ورحنا نقرأ أسماء الورد اسماً اسماً، وتشرح لي. ومن لون إلى لون كنت أضيع في سحر الطبيعة وتقنية الإنسان في الأخضر. يا اللّه احمني من هذا الجمال القاسي، وثبّتْ روحي أمام هذا الكرنفال الوحشيّ وسحره النفّاذ، لأرى إلى جانبي حبيبي، فلا يسرقني منه ناعسُ الورد، أو عسلُ التويج النائم في عطر الريح!

في النقطة الواحدة كنّا، نتنقّل في جنبات المكان، ولكنا لا نبرح النقطة. النقطة بدءٌ، والنقطة جملةٌ طويلةٌ، صفحةٌ، والنقطة الكتابُ الذي نحيا. ولا نَني نلوّن النقطةَ، هذا المولودَ البكرَ، العذبَ المشاكسَ الرجراجَ كأوّل قبلة، وأول سهم شبك الأضلاع وما بارَحَنا. جاسدْنا العشبَ، وهَبَنَا لنا، وهَبَنَا كلّ شيء، وانصرفنا إليه، معزولين عن الخليقة، رأسي على وركها، ويداها تطوّقان الضحية المستسلمة لدفء القتل في الحضن الأمين. مساماتي تتفتّح جوار سرّة الكون. وتدفّقْنا خصباً ومجرّاتٍ وفواكهَ ومواليدَ حتى استحلنا في حديقة الورد ورداً غريباً يَلْفت الناظرين.

خُذيني إلى قبرِ أوسكارْ وايلد
خُذيني إلى قبرهِ لأرمي هُناكْ
هَذه الزهرةَ الوحيدةَ، قلبي.

٣

مطار هيثرو ١٩٩٤/٩/١١

لا حاجة للكلام، وللصمت، وللغة، وقد صرتِ في الفضاء. أما أنا فأجرع قهوةً مرّةً، وأتصبّبُ داخلي حُمّى غريبة، من أثر الليل والصباح، وأحاول أن أُمسك بأزيز هذا الصمت وخطاك. هل تحدّق الطاولات بي، وأنا أكتب وأدخّنُ؟ وفي أي غيم تمخر طائرتك الآن؟ يجفّ حلقي، ولا أني أرطّب شفتيّ

بريقي. السجائر مرارةٌ أخرى، ولا طعم لشيء. أُدركُ الآن أني وحدي في لندن، وأني في المطار، وبعد ساعتين تقلع طائرتي. يا اللّه كم إنّ عينيك أمامي وفي كل ناحية، وأنّى أنظر أراك، أراهما حزينتين، ساهمتين! وددتُ أن أركض إليك وأنت تعبرين الحاجز وتغيبين. لكأنّ قلبي سقط هو الآخر معك على الدرج، لكأنه شرَخَ الصدرَ وَفَرَّ إليك. ما لي محاطاً بكل رياحك وبعادك، وما لي لا أَقرّ جالساً أو ماشياً، أو متطلّعاً في الأشياء وأكاد لا أراها؟

أيتها الصافية، كاملاً تسكنينني، وكاملاً في بهاء جسدك وروحِك أَفْنَى. أي وحدة وزحام أَعْبُرُ، كجيشٍ يخذله الانتصارُ، وأعلامُه منكّسة! ما أبطأ الوقت، وما أشد عدم تصديقي أو فهمي لما يجري. كيف مرّت الأسابيعُ، كيف استطعتُ أن أنسل روحي من قماش لندن، وقد تغلغلتِ فيه؟ كيف وحدي أبقى وأنت معي، وبعيدة في الجو، حيث يضيق بي الآن بهوُ المطار، ولا تُقبل طائرتي لأصعد وأرمي على الأرض التي أقلّتنا وردي ولهفتي عليك وخفقاني بك، لكل نقطة، شوارعها وحدائقها ومطاعمها وباراتها المزنّرة بالوردة أبداً، على الكامدن تاون والهول، كل ذلك كان جنّتي، جنّتنا. فكيف لا أرمي بقلبي؟ وكيف لي أن أعود به أصلاً، أدعه ليرعى بتلاتِ النرجس الذي تحدثنا عنه في الطريق، ويرعاك لي؟ سأرى إن كانوا قد حدّدوا على اللائحة رقم البوابة، لنكون معاً على الأقل في الجوّ رغم ابتعاد طائرتينا.

انطلقتُ في الثانية عشرة والثلث ظهراً، ولندن الآن من الجوّ غاباتٌ خضرة وغيم. الآن نتشارك في الفضاء الفسيح، وبينا تعبرين أنت إلى افريقيا، العاريةِ الأثداء والجنون، أخبُّ أنا باتجاه آسيا الطعينة. الغيم بساط أبيض، فأين يا ترى تقع غابة «كرولي» و«ريجنت بارك»، وأين المطعم المكسيكي؟ قرأتُ قليلاً من كتاب **انفرادات الشعر العراقي الجديد**. لا أطيقه. أقرأ الآن هذا الغيم الأبيضَ خَلَلَ الشباك، اقرأ وجهك، واقرأ المدى. هل مرّت طائرتك في نقطة قريبة، يا هلالي الذي لك أفقي؟ جاري في المقعد يقرأ، وأنا أتملاّكِ وأهرب في الغيم. يا لهذا الرسول الذي بيننا، ويشملنا بشاله الأبيض، حيث لا تصل أصابعي إلى قرنفل خصرك، ولا ألمس نجمةً. يُعْلَن الآن في الطائرة أنّ الوقت هو الثانية و٣٨ دقيقة، وما دروا وقتي الذي ما زال معك. لقد دخلنا في التوقيت الأردني، ولا توقيت لي غير توقيتك، ولندن. أهو الفردوسيّ الذي سألوه: أي المدن أحبّ اليك؟ فقال في القصيدة: تلك التي يعيش فيها حبيبي؟ لعله هو، أو ربما أكون أنا. تلك هي الحقيقة الساطعة لي، مثل أيامنا فيها، مثل اتساع عينيك وعمقهما الراجف الحزين.

وقال لي المضيف: «ماذا تشرب؟» قلت: «واين». قال: «برتقال»؟ قلت: «واين وأحمر». أشرب الآن وعيناي في الغيم. لم يحضر الغداء بعدُ. جميلاً كان نبيذُ السويسريين أمس، وسوهو، وأجمل كنت أنت، أجمل كان ليلنا في الساحة، أجمل بين الناس، ونحن نخطف القبل، وتخطفنا الأزقةُ، والعيونُ تلحظنا وتشاركنا الغبطة. ماذا يغنّي هؤلاء الشباب في ليل سوهو ويطبّلون؟ أهو الوداع لنا، أم فراق المحبين؟ تتغرغر عيناي الآن بالندى، والسيجارة تلسع اصبعي. أيتها الصافية، ألا يكفي ما تلسعنا به الدنيا!

هل ابتعد كثيراً مقهى «أونو» و«كوينز واي» و«روج» لأصاب بكل هذا المرض؟

أخفي الورقة، فالذي جانبي يتلصّص على ما أكتب؛ واللحظة بالذات، لا أريد أحداً ينظر إليَّ. أكاد أشهق، ومحارمُكِ الورقيةُ في الحقيبة. هل أعترف، أنا الذي في الخمسين، بأني لم أعرف مثل هذا العشق، ومثلَ هذه الهزّة؟ أنهيتُ الواين، وجمعوا القطعَ القماشية المبتلّة، وقد انتعشت. من الشباك غيمٌ مشوب بزرقة شاعرية وأنتِ.

أريد أن تقرأي هذه الكلمات: إذا متُّ بعد قليل، أو هوتِ الطائرة، فلن يعرف أحد كم أحبك، ولن يعرف الناس كم أصبحتُ عاشقاً في عامي الأخير. لكن. آه، هناك قصائدي! ولن أخاف.

أريد أن أبكي فرحاً بك. لا تظني أنّ الندى لم يبلّلني. أنا طفل كبير، وفوق ذلك شاعر.

الجمل السابقة كتبتها بعد الغداء مباشرةً، وكان فاتناً، لا ينقصه غير أن تكوني إلى جانبي: بذخٌ في النبيذ، شربتُ ثلاث قبايات طافحة، لا كؤوساً؛ كانت من النوع الذي أبيناه في المطعم المكسيكي وغيّروها لنا. لستُ ثملاً ولكنني شبه مخدّر. بعد قليل سأسترخي على المقعد. لا رغبة لديّ في القراءة. أريد أن أكون معك فقط، معك والغيم والزرقة. أما إذا غفوت فلن أسامحني، وبس.

«بس» كلمتك الجميلة التي تتخلّل حديثك لي غالباً، أستعيدها الآن وابتسم، لوجهك. ابتسم على صفحة الغيم، أستعيدها وأحزن لأنك لا أنت ولا كلامك الآن. متعب أنا وشبه دائخ، ربما لأنني جرعتُ الكمية كلّها في وقت قصير. تمشّيتُ قليلاً داخل الطائرة، اشتريتُ سجائر، وطغى عليَّ إحساس بأني وحدي. عميقاً اكتأبتُ، فقد أخذتِ الطائرةُ في الهبوط، وأيقنتُ أنني غادرتُ لندن حقيقةً، وأني بعد قليل أكون في عمّان، بينا تحتلّني تفاصيلُ الليلة الأخيرة، وشراشفُ سريرنا البيضاء، وأغوص في المسافة. يا إلهي الجميل، أعِدْ مراكبي إلى مياهي الصافية، فقد ابتعدنا عن لندن معاً، وصرنا في قارّتين.

لندن